

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
 إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

[يوسف: 40]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بسطُ تصريح
 يوسف للفتيين
 بحقيقة ما
 يعبدون

لَمَّا ألقى يوسف ﷺ على الفتيتين قضيةً المقارنة بين عبادة الأرباب
 المتفرقة التي لا حول لها ولا قوة، وبين عبادة الله الواحد القهار،
 وعلم منهما موافقة جوابهما لمُراده، دفعه ذلك إلى مواصلة الإرشاد
 وبيان سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأساً، فضلاً عن الألوهية،
 فأخبر عن حقيقة ما يعبدون، بقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ
 إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾⁽¹⁾.

وكذلك لَمَّا كَانَ جوابُ السُّؤالِ المتقدم في قوله: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ
 خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لِكُلِّ مَنْ يَعْقِلُ وَيُنْصِفُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ خَيْرٌ؛
 أشار إلى ذَلِكَ الجوابِ بِقَطْعِ القولِ بَعْدَ ذَلِكَ الاستفهام في سَلْبِ
 صِلَاحِيَّتِهِمْ قَبْلَ هَذَا الإمكانِ بَعْدَمِ حَيَاتِهِمْ، وَعَلَى فَرَضِ حَيَاتِهِمْ
 بِالْجَزْمِ بِعَجْزِهِمْ، فقال سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ
 سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾⁽²⁾.

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿تَعْبُدُونَ﴾: العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛
 لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا مَنْ له غاية الإفضال، وهو الله

(1) الألويسي، روح المعاني: 12/244.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/88.

تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، والعابدُ هو المُوَحِّدُ لله ربَّ العالمين⁽¹⁾. فهذه هي العبوديةُ الحقَّة، ولا تكون إلا لله تعالى.

(2) ﴿أَسْمَاءٌ﴾: الاسم: ما يُعرف به ذات الشيء، وأصله (سمو) بدلالة قولهم: (أسماء) و(سُمِّي)، وأصله من السَّمَوِّ: وهو الذي به رفع ذِكْرِ المُسَمَّى، فيُعرف به، قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (3) ﴿النمل: 30﴾، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: 31]، ومعرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمى وحصول صورته في الضمير، فقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ معناه: أنَّ الأسماء التي تذكرونها ليس لها مسميات، وإنما هي أسماء على غير مسمى، إذ كان حقيقة ما يعتقدون في الأصنام بحسب تلك الأسماء غير موجود فيها⁽²⁾.

(3) ﴿سُلْطَانٌ﴾: السَّيْنُ وَاللَّامُ وَالطَّاءُ تدورُ حَوْلَ مَعْنَى الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ، ومن ذلك السَّلَاطَةُ، وَهِيَ مِنَ التَّسْلُطِ، وَهُوَ الْقَهْرُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ السُّلْطَانُ سُلْطَانًا⁽³⁾، وَسُمِّيَتْ الْحُجَّةُ سُلْطَانًا؛ لِمَا يَلْحَقُ مِنَ الْهُجُومِ عَلَى الْقُلُوبِ⁽⁴⁾، والمعنى المحوري للجذر: هو التَّمَكُّنُ من القهر من بعيد، ومنه: "دَابَّةُ سَلْطَةِ الحافر"، وكذلك: "بَعِيرُ سَلْطِ الخَفِّ"، فهما يتمكَّنان من الوصول إلى الأبعاد السَّحِيقَةِ؛ لشدَّةِ تَحْمُلِهِمَا، ومنه السُّلْطَان: الحاكم؛ فهو ذو سُلْطَةٍ؛ أي: قهر يُطَوِّع به الرِّعِيَّةَ وإن لم يكونوا تحت عينيه⁽⁵⁾.

والمُرَادُ بالسُّلْطَانِ فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: الْحُجَّةُ⁽⁶⁾.

(4) ﴿الْحُكْمُ﴾: الحاء والكاف والميم تدلُّ اشتقاقاتها عَلَى الْمَنْعِ⁽⁷⁾، وَفِيهِدِهِ الرَّاغِبُ بِكَوْنِهِ مَنَعًا لِلْإِصْلَاحِ⁽⁸⁾. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ جَرِيرٍ:

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكِمُوا سَفَهَاءَكُمْ *** إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْصَبَا⁽⁹⁾

(1) الزاغب، للفردات: (عبد).

(2) الزاغب، للفردات: (سما).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).

(4) الزاغب، للفردات: (سلط).

(5) جبل، للعجم الاشتقاقِيّ للوَصْلِ: (سلط).

(6) السَّفْهُ، مدارك التنزيل: 2/112.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

(8) الزاغب، للفردات: (حكم).

(9) جرير، ديوان جرير، ص: 47.

فَإِنْ مَعَنَاهُ: اَمْنَعُوهُمْ مِّنَ التَّعَرُّضِ لِي⁽¹⁾، وَمِنْهُ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُهَا مِنْ مُخَالَفَةِ الرَّاَكِبِ⁽²⁾، وَالْحُكْمُ بِالشَّيْءِ أَنْ تَقْضِيَ أَنَّهُ كَذَا، أَوْ لَيْسَ بِكَذَا، سَوَاءٌ أَلْزَمْتَ ذَلِكَ غَيْرَهُ أَمْ لَمْ تَلْزَمْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]⁽³⁾.

وَالْحُكْمُ فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ قَضَاءُ اللَّهِ الشَّرْعِيُّ.
 (5) ﴿الَّذِينَ﴾: الدَّالُّ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ تَدُلُّ تَصْرِيفَاتُهَا عَلَى مَعْنَى اللُّزُومِ، فَتَأْتِي فِي الْعَرَبِيَّةِ عَلَى أَوْجِهٍ تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى شَيْءٍ يَلْزَمُ الْإِنْسَانَ، أَوْ يَلْزَمُهُ الْإِنْسَانُ⁽⁴⁾، وَأَرْجَعَ ابْنُ فَارِسٍ هَذِهِ الْمَادَّةَ إِلَى جَنْسٍ مِنَ الْإِنْقِيَادِ وَالذُّلِّ⁽⁵⁾، وَهَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مُتَلَازِمَانِ.
 وَالذِّينَ يُقَالُ لِلطَّاعَةِ وَالْجِزَاءِ، وَاسْتَعِيرَ لِلشَّرِيعَةِ، وَالذِّينَ كَالْمَلَّةِ، لَكِنَّهُ يُقَالُ عِتَابًا بِالطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لِلشَّرِيعَةِ⁽⁶⁾. وَوَرَدَ الذِّينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَوْجِهٍ، بَلَغَ بِهَا ابْنُ الْجَوَزِيِّ إِلَى أَحَدِ عَشَرَ وَجْهًا⁽⁷⁾.

وَالْمُرَادُ بِالذِّينِ فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْنَا﴾ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ.

(6) ﴿الْقِيَمَ﴾: الْقَافُ وَالْوَاوُ وَالْمِيمُ تَدَوَّرُ تَصَاريفُهَا عَلَى أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: جَمَاعَةٌ نَاسٍ، وَالْآخَرُ: انْتِصَابٌ أَوْ عَزْمٌ⁽⁸⁾، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: خُلِقَ قِيَمٌ؛ أَيٌ: حَسَنٌ مُسْتَقِيمٌ، وَقَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ [التبينة: 3]؛ أَيٌ: مُسْتَقِيمَةٌ، تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْنَا﴾ [التروم: 30]؛ أَيٌ: الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا زَيْغَ فِيهِ وَلَا مَيْلَ عَنِ الْحَقِّ⁽⁹⁾.

❖ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ تَفْنِيدُ لِعَقَائِدِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَوْهَامِهَا، وَذَلِكَ مِنْ إِبْخَارِ يُوسُفَ ﷺ

(1) الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ، غَرِيبُ الْحَدِيثِ: (حَكَمَ).

(2) ابْنُ الْأَثِيرِ، النَّهَاجِيُّ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ: (حَكَمَ).

(3) الرَّاغِبُ، الْمَفْرَدَاتُ: (حَكَمَ).

(4) أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ، الْوُجُوهُ وَالنُّظَائِرُ، ص: 217.

(5) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَايِيسُ اللَّغَةِ: (دِين).

(6) الرَّاغِبُ، الْمَفْرَدَاتُ: (دِين).

(7) ابْنُ الْجَوَزِيِّ، نَزْهَةُ الْأَعْيُنِ النَّوَاطِرُ فِي عِلْمِ الْوُجُوهِ وَالنُّظَائِرِ، ص: 297 - 299.

(8) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَايِيسُ اللَّغَةِ: (قَوْم).

(9) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (قَوْم).

تَوْحِيدُ اللَّهِ هُوَ
الدِّينُ الْقَيِّمُ
الْمُوصِلُ إِلَى كُلِّ
خَيْرٍ، وَمَا سِوَاهُ
وَهُمْ وَهْبَاءٌ

لَمَنْ مَعَهُ فِي السَّجْنِ، وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ، جَعَلْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ أَرْبَابًا، جَهْلًا مِنْكُمْ وَضَلَالًا، وَهِيَ لَا شَيْءَ، وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُجَّةٍ أَوْ بُرْهَانٍ عَلَى صِحَّتِهَا، بَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْحُجَّةَ بِالنَّهْيِ عَنْ عِبَادَتِهَا وَبَيَانِ بُطْلَانِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أَي: مَا الْحُكْمُ الْحَقُّ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، أَمَرَ الْأَنْتِقَادُوا، وَلَا تَخَضَعُوا لِغَيْرِهِ، وَأَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَهَذَا هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوصِلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ، بَلْ مَعْوَجٌ يُوَصِّلُ إِلَى كُلِّ شَرٍّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ، فَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهُ⁽¹⁾.

وَتُرْشَدُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَيَشْرَعُ الشَّرَائِعَ وَيَسُنُّ الْأَحْكَامَ، وَإِلَى أَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ بِالْفَرْقِ بَيْنَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبَيْنَ الشَّرِكِ، حَصَلَ مِنْهُمْ مَا حَصَلَ مِنْ أَنْوَاعِ الْجَهْلِ وَالْانْحِرَافِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ إِنَّ قَدَمَاءَ الْمَصْرِيِّينَ كَانُوا يَفْرِضُونَ آلِهَةً لِلزَّرْعِ، وَآلِهَةً تَتَوَالَدُ وَأُخْرَى تَتَقَاتِلُ، كُلُّهَا فَرُوضٌ لَا وَجُودَ لَهَا، وَهِيَ آلِهَةٌ لَا تَصْلُحُ لِلْأُلُوهِيَّةِ، وَأَنَّهَا أَسْمَاءٌ بِلَا مُسَمِّيَّاتٍ وَالْوُهْيُتُّهَا دَعْوَى بَغِيرِ دَلِيلٍ، وَأَنَّ الْمُسْتَحَقَّ لِلْأُلُوهِيَّةِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَإِلَى أَنَّ يُوسُفَ ﷺ قَامَ بِوَاجِبِهِ فِي دَعْوَةِ صَاحِبِي السَّجْنِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمَا اسْتَجَابَا وَانْقَادَا، فَتَمَّتْ عَلَيْهِمَا النِّعْمَةُ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمَا لَمْ يَزَالَا عَلَى شِرْكِهِمَا، فَتَمَّتْ عَلَيْهِمَا - بِذَلِكَ - الْحُجَّةُ⁽²⁾.

❁ الإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَدَائِيُّ:

عِلَّةُ الْفَضْلِ:

فُصِّلَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ

تَصْحِيحٌ لِّلْمَسَارِ
الْعَقْدِيِّ بِإِبْطَالِ
وُجُودِ الْآلِهَةِ
الْمُفْتَعَلَةِ

(1) السَّعْدِيُّ، تَبْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: 398، وَنَخْبَةٌ مِنْ أَسَاتِذَةِ التَّفْسِيرِ، التَّفْسِيرُ الْمُبَسَّرُ، ص: 240.

(2) السَّعْدِيُّ، تَبْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: 398، وَأَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 7/3825.

سَمِّئُوهَا، عَمَّا قَبْلُكُمْ، لِكُونَهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَيَانِ لِمَا قَبْلَهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوْمَأَ إِلَى بُطْلَانِ دِينِهِمُ الشَّرِكِيِّ؛ بِإِثَارَتِهِ الشَّكَّ فِي صَحَّةِ إِلَهِيَّةِ آلِهَتِهِمُ الْمُتَفَرِّقِينَ، ثُمَّ صَرَّحَ بِمُضْمُونِ ذَلِكَ بِالتَّصْصِيصِ عَلَى إِبْطَالِ وَجُودِ تِلْكَ الْأَلْهَةِ عَلَى جِهَةِ الْحَقِيقَةِ⁽¹⁾، فَكَانَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ لِلْجَمَلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَبَيْنَ الْجَمَلَتَيْنِ كَمَالُ الْإِتِّصَالِ.

غَرَضُ التَّعْقِيبِ بـ ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾:

ما سَمَّاهُ الْبَشَرُ
مِنَ الْأَلْهَةِ، لَا
يَرْقَى إِلَى أَنْ
يَكُونَ مَعْبُودًا

جَاءَ التَّعْبِيرُ الْقِرْآنِيُّ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْفِتْيَانُ وَأَهْلُ السَّجَنِ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ فِي أَمْرِ عِبَادَتِهِمْ لِأَرْبَابِهِمُ الَّتِي هِيَ مُفَرَّغَةٌ مِنْ جَمِيعِ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَهِيَ مَجْرَّدُ أَسْمَاءٍ كَاذِبَةٌ بَاطِلَةٌ لَا مُسَمًّى لَهَا فِي الْحَقِيقَةِ، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ تَصْدِيرُ الْآيَةِ بِأَسْلُوبِ النَّفْيِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا﴾، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى نَفْيِ حَقِيقَةِ الْأُلُوهِيَّةِ لِهَذِهِ الْأَرْبَابِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

معنى النَّفْيِ فِي: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾:

تَنْقِيَةُ الْخَوَاطِرِ
مِنْ زَيْفِ
الْمَعْبُودَاتِ
الْوَهْمِيَّةِ، هُوَ
مِفْتَاحُ الْعِبُودِيَّةِ

صُدِّرَتِ الْآيَةُ بِالنَّفْيِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا﴾، وَذَلِكَ لِنَفْيِ الْخَوَاطِرِ الَّتِي تَتَنَازَعُهُمْ فِي شَأْنِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، وَنَفْيِ الْخَرَافَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَجُولُ بِخَوَاطِرِهِمْ فِي كَيْفِيَّةِ تَرْكِ هَذِهِ الْأَرْبَابِ وَالْخُرُوجِ عَنْ طَاعَتِهَا؛ فَكَانَ النَّفْيُ لِكَشْفِ زَيْفِهَا وَعَجْزِهَا، وَأَنَّهَا مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مَعَ اللَّهِ ﷻ.

بِرَاعَةِ التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ الْمُنْفِيِّ:

تَجْدِيدُ عِبَادَةِ
الْأَوْثَانِ الْبَاطِلَةِ،
دَلِيلٌ عَلَى خُلُلِ
فِي الْفِطْرَةِ
وَالْعَقْلِ

دَلَّ التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ الْمُنْفِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، عَلَى تَجَدُّدِ عِبَادَتِهِمْ لِهَذِهِ الْأَلْهَةِ، وَاسْتِمْرَارِهِمْ فِي تَقْدِيسِهَا، مَعَ أَنَّ ذَاتَهَا غَيْرُ مَوْصُوفَةٍ بِصِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ سَلَامَةِ فِطْرَتِهِمْ وَخِيْبَةِ عَقُولِهِمْ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/276.

دَلَالَةُ الْعُدُولِ عَنِ التَّثْنِيَةِ إِلَى الْجَمْعِ:

جاءَ الخطابُ في الآيةِ المُتقدِّمةِ موجَّهاً لصاحِبِي السَّجَنِ في: ﴿يَصْلَحِي السَّجْنِ عَازِبًا مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، ثُمَّ عُدِلَ عَنْ ذَلِكَ إِلَى خطابِ الجَمْعِ في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ﴾، ولم يردِ النَّظْمُ القرآنيُّ على نحو: (ما تَعْبُدَانِ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ)؛ وذلكَ لِأَنَّهُ ﷻ، أرادَ جميعَ مَنْ في السَّجَنِ مِمَّنْ يُشْرِكُ باللهِ سُبْحانَهُ⁽¹⁾، أو أَنَّ الخطابَ بـ ﴿تَعْبُدُونَ﴾ لهُما ولقومِهما مِمَّنْ هُم على دينِهما⁽²⁾.

تَغْمِيمُ الْخِطَابِ
لِجَمِيعِ أَهْلِ
السَّجَنِ، مِرَاعَةً
لِوَاقِعَةِ الْقِصَّةِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ودلالة الإضمار:

آثر السِّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾؛ لأنَّ لفظَ (دون) يدلُّ على الدُّنْيَا والانحطاط، لكلِّ ما يُعبد من دون الله، فكلُّ ما يُعبد من دون الله حقير ومهين، ومنها هذه الأرباب التي عبدوها من دون الله. وعبرَ كذلك بالإضمار دون الإظهار، كأن يردَّ النَّظْمُ: (من دون الله)؛ لكنَّه عدل إلى الإضمار في هذا المقام لكونه أبلغ في التَّعبير عن سُخْفِ اعتقاد المشركين وسُفاهة أحلامهم؛ لِأَنَّهُ يُشير إلى أنَّ الأصنام والأوثان التي يعبدونها ليست سوى أسماء أطلقها عليها المشركون، وليس لها أيُّ وجودٍ حقيقيٍّ في المنفعة والمضرة لهم؛ ولذلك فإنَّ التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ بالإضمار يؤكِّد أنَّ عبادة الأصنام والأوثان هي عبادة باطلة، وأنَّ العبادة الحقيقية لا تكون، ولا تصحُّ إِلَّا لله وحده الله، وفيه تنزيهٌ للزَّجِّ بالاسم الجليل في سياق تقرير عقيدة المشركين الوثنيَّة، وما حسَّنته لهم الشَّياطين، وذَهَبَتْ بهم عن الفطرة الحنيفيَّة إلى الأباطيل، وحرَّمت عليهم ما أحلَّ الله لهم، وأمرتهم أنْ يُشركوا بالله ما لم يُنزلْ به سلطاناً، دونَ حُجَّةٍ وبرهان.

كُلُّ مَا عُيِدَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ
مُهِينٌ، وَسُخْفٌ
اعْتِقَادٌ لِلْمُشْرِكِينَ
وَسُفَاهَةٌ
أَحْلَامُهُمْ

(1) الخازن، ثَبَابُ التَّأْوِيلِ: 2/529.

(2) أبو حَتَّان، البحر المحيط: 6/278، وأبو السَّعُود، إرشاد العقل السَّليم: 4/278.

دلالة تقديم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾:

تقديم لفظ
الدّون مناسبة
لما سبق، وتوبيخ
وتقريع لعباد
هذه الأرباب

جاء التعبير القرآني بتقديم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ على قوله: ﴿أَسْمَاءَ﴾؛
لأنّه لما تقدّم في الآية السابقة إبطالُ أمر اتّخاذ الأرباب، في قوله
تعالى: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْفَهَّارُ﴾ ناسب هنا
تقديم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، وللإشارة إلى تبكيت وتوبيخ مَنْ يعبدون هذه
الأرباب من دون الله.

بلغة التعبير بالأسماء في باب العبادة:

آلهة المشركين
مجرد أسماء لا
تنفع ولا تضر

الأسماء تُوضع عادةً للدلالة على المُسمّى، بحيث إذا نطقنا
الاسم؛ نستحضر سورة المُسمّى، كما نضع لذات الشّخص اسمًا،
فإذا أطلق هذا الاسم؛ انصرف إلى تلك الذات، فإذا وُضع اسمُ
مُسمّى غير موجود، كما فعل الفتيان وأهل مصر، حيث وضعوا
أسماء آلهة لا حقيقة لوجودها، فهم بذلك يكونون قد وضعوا الاسم
على غير مُسمّى⁽¹⁾، ولذلك ذمّهم القرآن على ذلك، حيث عبّر عن
آلهتهم بالأسماء في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ﴾؛ للتّنبية
على عَدَمِ صلاحيّتها لشيءٍ ممّا يُعْتَقَدُ فيها، فهي مُجَرَّدُ أَسْمَاءٍ؛
أي: ألفاظٍ أحدثها هؤلاء وآباؤهم، فهي فارغة لا مُسمّياتٍ تحتها،
ولا مطابقٍ لها في الخارج، وليسَ فيها شيءٌ مِنَ الحقيقة؛ إذ هي
مخلوقة، وليست بخالقة، ومَرزوقة وليست برازقة، وزائلة وليست
بباقية، وما كان هذا وصفه؛ لا يستحق أن يكون إلهاً⁽²⁾.

سرّ التعبير بالأسماء:

آلهتهم أسماء
بلا مُسمّى،
كقرباتهم،
عبادة بلا معبود

جاء التعبير القرآني بِذِكْرِ الأسماء في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِيَتْهُنَّ﴾، والمراد سَمِيَتْهُنَّ آلهة، وهي لا يوجد

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي، ص: 6956/11.

(2) أبو حنّان، البحر المحيط: 6/278، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/278، وطباطبائي، التفسير

الوسيط: 7/362.

فيها من صفات الألوهية شيء؛ لذلك لم يذكر القرآن المُسمَّيات لإسقاطها عن مرتبة الوجود، وللإشارة بأن تسميتهم لها غاية في البطلان، فهي أسماء بلا مُسمَّى، كعبادتهم بلا معبود⁽¹⁾، ولذلك عدل التعبير عن وصفها بالآلهة، أو الأرباب إلى الأسماء المجردة التي لا دلالة فيها.

دلالة التعبير بالأسماء عن الذوات:

لفظ ﴿أَسْمَاءَ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾. إما أن يكون المراد بها: ذوات الأصنام، وإما أن يكون المعنى: أن عبادتهم حاصلة لمعانٍ تدلُّ عليها الأسماء، ولكنها ليست موجودة في الأصنام التي عبدوها من دون الله تعالى، ويكون قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ بمنزلة: وضعتُموها، والضمير (ها) راجع للتسميات⁽²⁾.

براعة أسلوب القصص:

في قول الله ﷻ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أسلوب قصير، وطريقه: النَّفْيُ ﴿مَا﴾ والاستثناء ﴿إِلَّا﴾. وهو من قصر الصفة على الموصوف قصرًا إضافيًا؛ فهي مجرد أسماء لا مُسمَّيات لها، فليس لها في الخارج وجود حقيقي إلا أَسْمَاؤها⁽³⁾، وهذه الأسماء هي من مخترعاتهم، ومبناها قائم على محض الجهل والضلال.

دلالة التعبير بـ: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾:

عبر القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾؛ للإشارة إلى أن هذه الأرباب من بنات أفكارهم، فهم الذين صنعوها، وجعلوا لها أسماء من باب الجهل والضلال؛ لأنَّ قدماء المصريين كانوا يجعلون

مَعْبُودَاتِ
الْمُشْرِكِينَ أَسْمَاءَ
مُجَرَّدَةً عَنْ
مَعَانِيهَا، لَهَا
شَكْلٌ ظَاهِرِيٌّ بِلَا
جَوْهَرٍ

مَعْبُودَاتِ
الْمُشْرِكِينَ
مُجَرَّدَةٌ أَسْمَاءٍ
وَهَمِيَّةٍ، لَا قِيَمَةَ
لِمُسَمِّيَاتِهَا فِي
مِيزَانِ الْعِبَادَةِ

مَا يَخْتَرَعُهُ
الْعَقْلُ الْقَاصِرُ
لَا يَرْقَى إِلَى أَنْ
يُعْبَدَ وَيَبْقَى

(1) الألوسي، روح المعاني: 12/244.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/246.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/276.

آلهة للزُّروع، وآلهة تتوالد وتتقاتل، وكلُّها فروض لا وجود لها، فهي أسماءٌ سَمَّوها وعبدوها، وتتابعَت أجيالهم على عبادتها⁽¹⁾.

بلاغة الحذف:

في قول الله سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾ إيجازٌ بالحذف، وذلك لأنَّ فِعْلَ (سَمَّى) يتعدَّى لمفعولين، وقد اسْتَوْفَى مفعولُهُ الأوَّل، وهو الضَّمير (ها)، وحذِفَ مفعولُهُ الثاني، والتقدير: سَمَّيْتُمُوهَا آلهة⁽²⁾، وفي طَيِّ المفعولِ الثاني تأكيدٌ لكونِ هذه المعبوداتِ لا حقيقةَ لها، وتربيةٌ لما اقتضاهُ المقامُ من إنزالها عن مرتبةِ الوجود، وإعلامٌ بأنَّ تسميتهم باطلَّةٌ حيث كانت بلا مسمًى⁽³⁾، وفي حذفه أيضًا إيحاءٌ إلى شناعةِ صنيعهم في اتِّخاذهم غيرَ الله تعالى آلهةً.

بلاغة الإدماج في: ﴿أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾:

قوله: ﴿أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾ تفسيرٌ للضمير المرفوع (الواو)، في قوله قَبْلُ: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾، والمرادُ به الرَّدُّ على آبائهم، قطعًا لِعذرهم؛ لئلا يقولوا: إِنَّا وجدنا آباءنا كذلك يَفْعَلُونَ، فسُدَّتْ عليهم منافذُ الاحتجاج، وبُيِّنَ لهم أَنَّ آبَاءَهُمْ كانوا على ضلالٍ وجهلٍ، فلا يصحُّ على هذا أن يفتدوا بهم في ضلالهم وجهلهم، وفي الجملة إدماجٌ يُرادُ به تلقينُ العذرِ للفتين؛ ليسهلَ عليهما تركَ عبادةِ آلهةٍ متفرقةٍ متعدِّدة⁽⁴⁾.

غرض تقديم ﴿أَنْتُمْ﴾:

قدَّمَ سياقُ القرآن الكريم تسمية الآلهة المزعومة إلى الأبناء وأسندها إليهم في قوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾، مع أنَّ أصلَ التسمية صادرٌ من آبائهم السَّالفين، ودور هؤلاء الأخلاف في

حقارة المعبودات
من دون الله
خالق الأرض
والسَّموات

سدَّ منافذِ
الاحتجاج
الباطل، على
أهل الشُّك
والضلال الزَّائل

من اتَّبَعَ ضلالةَ
مَن سبق،
أُلجِئَتْ به
التَّبعة وإن كان
لحق

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير 7/3825.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/362.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/278.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/276، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/362.

عبادتها، هو دور المتَّبِع لآبائِهِ فيما اختاروه، وابتدعوه، ثم رضاهم بها؛ لذلك كان تقديم ضمير الخالفين ﴿أَنْتُمْ﴾ على الأسلاف، من باب التَّسْجِيل على الخلف بهذا الاتِّباع الضَّالَّ، فكأنَّهم هم الذين قاموا بوضع هذه الأسماء الموهومة المُخترعة في قوله تعالى: ﴿سَمِئْتُمُوهَا﴾.

بلاغة الكناية في جملة نفي إنزال السلطان:

في التعبير بنفي إنزال السُّلْطَان، في قولِ اللَّهِ ﷻ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، كناية عن نفي إيجاد دليل، يدلُّ على إلهيَّة معبوداتهم في شواهدِ العَالَمِ⁽¹⁾. وفي هذا سُدُّ لُطْرُقِهِمْ في توجيه صحَّة عبادة الأصنام عليهم أَحْكَم سُدٍّ، فَإِنَّهُمْ إِنْ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ حُجَّةً فِي ذَلِكَ، رُدُّوا بقوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. وفي العبارة تَلَطُّفٌ في مقام المناظرة؛ وذلك لأنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُنْزِلْ سُلْطَانًا وَحُجَّةً على كونها آلهةً، بَلْ أَنْزَلَ الأدلَّةَ والبراهينَ القاطعةَ على عَدَمِ استحقاقِ شيءٍ دونَ اللَّهِ تَعَالَى لِلأُلُوهِيَّةِ، فذكر يوسفُ ﷺ نَفْيَ الحُجَّةِ على كونها آلهةً، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِإثباتِ الحُجَجِ الرَّبَّانِيَّةِ، على نفي كونها آلهةً؛ تَلَطُّفًا مَعَ السَّجِينِينَ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لِقَبُولِهِمَا دَعْوَتَهُ.

سرُّ التعبير بنفي الإنزال في: ﴿مَا أَنْزَلَ﴾:

عَبَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بنفي الإنزال، في قوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ على أَنَّ أَمْرَ التَّوْحِيدِ مَصْدَرُهُ الْعُلُوُّ، وَإِنْزَالُ وَحْيِ اللَّهِ مِنَ السَّمَاءِ على أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، وَأَمْرُ اتِّخَاذِ الْأَرْبَابِ وَالشُّرَكَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ فِعْلِ أَرْضِيٍّ لَا ارْتِبَاطَ لَهُ بِتَشْرِيعِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَوْهَامِ الْبَشَرِ.

دلالة التعبير بلفظ الجلالة:

دَلَّ التَّعْبِيرُ بلفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ في مقام الإنزال، على أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ، فَلَا يَعْبُدُ الْمَوْلَى ﷺ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ

نَفْيُ إِيجَادِ دَلِيلٍ
عَلَى إلهيَّةِ غَيْرِ
اللَّهِ سُبْحَانَهُ

التَّوْحِيدُ مَصْدَرُهُ
إِنْزَالُ وَحْيِ اللَّهِ،
وَاتِّخَاذُ الْأَرْبَابِ
فِعْلٌ أَرْضِيٌّ مِنْ
أَوْهَامِ الْبَشَرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/276.

المعبودات
دون الله وهم
وخيال، ما أنزل
الله بها من
سلطان

الاستغراق في
نفى الخجج
على الشرك، من
بلاغة البيان

لا سلطان
لآلهة المزعومة
على عابديها؛
لعدم قدرتها
على نفعهم
وضرهم

إنطال جميع
التصرفات
لزعومة لإلهة
المشركين، دليل
على بطلان
حكمها

وبيّنه ونزل به الوحي، وفيه إشارة إلى تبيّتهم وتوبيخهم بأنّ معبوداتكم، ليس لها في عالم الحق مكان؛ لأنّها لم يأت بها كتاب أنزله الله، ولم يحملها نبيّ مرسل، إنّما هي من وهمهم وضلالهم.

معنى حرف الجرّ: ﴿من﴾:

﴿من﴾ في قول الله ﷻ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، صِلَةٌ يرادُ بها توكيد العموم وتقويته، وذلك أنّ لفظ (سُلْطَانٍ) نكرة في سياق النفي (مَا)، فأفادت العموم، إلّا أنّ هذا العموم ظاهرٌ وليس نصّاً، فلمّا دَخَلَ عليه حرفُ الجرّ ﴿من﴾ نقلَ العمومَ من كونه ظاهراً إلى كونه نصّاً، وهذا أقوى في نفي الحُجّة والسُّلطان؛ إذ لم يبق شيئاً من أفرادِ ثابتاً، فلا بُرْهانَ لهذه المعبوداتِ تتسلّطُ به على تعظيمِها، فانتفى تعظيمُها لذاتها أو لغيرها⁽¹⁾.

سرُّ التعبير بلفظ (السُّلطان):

آثر التعبير بلفظ ﴿سُلْطَانٍ﴾ دون (حُجّة)؛ لوجود فرق بينهما، فالحُجّة تُطلق على الدلالة المبيّنة للمحجّة؛ أي: المقصد المستقيم الذي يقتضي صحّة أحد التقيضين، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: 149]؛ بخلاف لفظ ﴿سُلْطَانٍ﴾ الذي تدلُّ مادّته على التّمكّن من القهر، يُقال: سلّطته فتسلّط، ومنه سُمّي السُّلطان؛ لذلك فالمادّة اللغويّة تحمل معنى القهر والقوّة، وهو المناسب هنا في سياق نفي الآلهة التي تُعبد من دون الله، فلا سلطان لها على عابديها، وفيه إشارة إلى بطلان عبادة هذه المعبودات لعدم قدرتها على النّفع والضرّ، وهذا دليل على أنّها لا سلطان لها.

دلالة أسلوب القصير في شأن الحكم:

في قول الله سبحانه: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ قصر، وطريقه: النّفي ﴿إِنْ﴾ والاستثناء ﴿إِلَّا﴾، وهو من قصر الصّفة على الموصوف،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/89.

قصراً حقيقياً ادعائياً، وذلك أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَطْلَقَ عَلَيْهِ وَصْفُ الْحُكْمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَلَكِنَّ الْحُكْمَ الْكَامِلَ وَفَصَلَ الْأَمْرَ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، فَكَانَ حُكْمُ غَيْرِهِ بِمَنْزِلَةِ الْعَدَمِ فِي جَانِبِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى.

وفي جُمْلَةِ الْقَصْرِ إِبْطَالُ لَجْمِيعِ التَّصَرُّفَاتِ الْمَزْعُومَةِ لِأَلَهِيَّتِهِمْ؛ بِأَنَّهَا لَيْسَ لَهَا مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِيمَا زَعَمَهُ عِبَادُهَا أَنَّهُ مِنْ حُكْمِهَا وَتَصَرُّفَاتِهَا⁽¹⁾.

وعلى هذا فالحكم الحق في الرُّبُوبِيَّةِ والعقائد والعبادات، لا يكون إلاَّ للهِ وحده، فلا مجال للبشر أن يحكم أحدٌ منهم فيه برأيه وهواه.

بلغة التعبير بـ ﴿الْحُكْمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، هذه الجملة مع وجازتها تحمل كثيراً من المعاني والدلالات في المجالات الشرعيَّة والدنيَّة، فتحصر أمر التشريع والعبادة لله وحده، والناس في هذا دورهم تطبيق ما شرعه الله تعالى.

دلالة التعبير بالإظهار ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾:

جاء التعبير القرآني بإظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فلم يقل: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لَهُ)؛ مع سبق ذكره في قوله سبحانه: ﴿مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وذلك لإعطاء القدسيَّة لأحكام الله ﷻ، فلا تُسَوَّلُ نفسٌ بشر أن يُدْخِلَ نفسَه في مجال التشريع الإلهي بأن يشرع ما لم يأذن به الله، فليس ذلك من خصائص البشر، إنَّما هو من خصائص ألوهيَّته سبحانه، وللاشارة إلى أَنَّ أحكام الله ظاهرة للعيان، فلا يعتريها خفاء أحكام البشر لمراعاة أهوائهم.

جوامع الكلم
الذي يستوعب
مقاصد الدين
ومصالح الدنيا

التشريع الإلهي
له القداسة
وليس من
خصائص البشر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/277.

عِلَّةُ الْفَضْلِ:

إفراد الله تعالى
بالعبودية
حكمه الذي
تتابع عليه
الرسل

فَصِلَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لَوُقُوعِهِ اسْتِثْنَاءً بَيَانِيًّا؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ وَارِدَةٌ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ يَمُهِمُّ مِنَ الْجُمْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَيْهَا ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ﴾، فَإِنَّهَا تَبَعَتْ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي سَوْأًا حَاصِلَةً؛ فَمَاذَا حَكَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ؟ فَجَاءَ الْجَوَابُ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾⁽¹⁾. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ مُنْزَلَةً مِمَّا قَبْلَهَا مِنْزَلَةُ التَّأْكِيدِ لِلْجُمْلَةِ قَبْلَهَا؛ تَأْكِيدًا لِلْمَعْنَى وَالزَّمَامَ بِهِ أَنَّهُ قَدْ حَكَّمَ بِهِ⁽²⁾. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ فِي مَوْجِعِ التَّلِيلِ لِمَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: حَيْثُ لَمْ يَكُنِ الْحُكْمُ فِي شَأْنِ الْعِبَادَةِ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهُ لَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ⁽³⁾.

وَلَا تَنَافَى بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهَا يَصِحُّ بِاعْتِبَارٍ مَنَاسِبٍ لَهُ، وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ النِّكَاتِ الْبَلَاغِيَّةَ تَتَوَارَدُ وَلَا تَتَزَاحَمُ.

دَلَالَةُ التَّعْقِيبِ بـ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾:

الأمرُ بالعبادة،
أمرُ فاعل قاطع
لكلِّ العبادِ

لَمَّا ذَكَرْتَ الْجُمْلَةَ السَّابِقَةَ أَنَّ الْحُكْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ الْمُخْتَصُّ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْحُكْمِ، وَانْتَفَى عَنْ غَيْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًّا فِي وَجُوبِ تَوْحِيدِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ وَرَهْبَةً مِمَّا بِيَدِهِ؛ أَتْبَعَهُ تَأْكِيدًا لِذَلِكَ، وَالزَّمَامَ بِهِ أَنَّهُ حَكَّمَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾⁽⁴⁾.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ الْقَصْرِ فِي الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ:

العبادةُ مَحْضُ
حَقِّ اللَّه
سُبْحَانَهُ، وَلَا
مَعْبُودَ بِحَقِّ
سِوَاهُ

فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أُسْلُوبُ قَصْرٍ، وَطَرِيقُهُ: النَّفْيُ (لَا) وَالِاسْتِثْنَاءُ، وَهُوَ مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَى الْمَوْصُوفِ قَصْرًا حَقِيقِيًّا تَحْقِيقِيًّا؛ إِذْ إِنَّ الْعِبَادَةَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا يُصَرَفُ شَيْءٌ مِنْ أَفْرَادِهَا لِغَيْرِهِ.

(1) أَبُو السَّعُود، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 4/278.

(2) الْبِقَاعِي، نِظْمُ الذَّرَرِ: 90 - 10/89.

(3) الْأَلُوسِي، رُوحُ الْمَعَانِي: 6/435.

(4) الْبِقَاعِي، نِظْمُ الذَّرَرِ: 4/42.

وفي قوله سُبْحَانَهُ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ انتقالٌ من براهين إثباتِ اختصاصِ الألوهيةِ بالله تعالى إلى التَّعليمِ بامْتثالِ أمرِهِ ونهيهِ؛ لأنَّ ذلكَ نتيجةُ إثباتِ الوحدانيةِ لَهُ ﷻ (1).

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿أَمَرَ﴾ في موضوعِ العبادة:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿أَمَرَ﴾ على وجوبِ الالتزامِ والامتثالِ لأمرِ الله ونهيهِ في كلِّ ما شرع؛ لأنَّ ذلكَ إعلانٌ من العبدِ بإثباتِ وحدانيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وفيهِ ردٌّ على مَنْ يتعلَّلون في أمرِ شركهم، بأنَّ ذلكَ من أوامرِ أكابرهم.

وجهُ التَّعبيرِ بالعبادةِ في: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بالعبادة، في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، دون غيرها كالتَّوحيد؛ لأنَّها تُطلق عليه، وتشمل غيره من قضايا الإيمان وقضايا التَّشريع؛ فهي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّهُ الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة، فالعبادة منهج حياة، فعلى العابد أن يلتزم أمر المعبود فيخضع، وينقاد له لا لغيره من البشر، وفيهِ إشارةٌ إلى ذمِّ عبادةِ البشر للبشر.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾:

آثر القرآن التَّعبيرَ بالضَّمير، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾؛ لدلالة ما سبق عليه، في قوله: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فسبق ذِكرُ الظَّاهر، فاكتفى هنا بالضَّمير عنه، ولأنَّ العبادة الأصل فيها أن تكون لله، فلا تنصرف إلى غيره، فكان الضَّمير في مقام التَّعريف لعدم صحَّة وقوع العبادة لغيره، وللإشارة إلى العلم به، فلا يحتاج إلى إعادة ذِكره مرَّةً ثانية.

نكتَةُ التَّعبيرِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ ﴿ذَلِكَ﴾:

﴿ذَلِكَ﴾ من قولِ الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، اسمٌ إشارةٌ يعودُ

أمر الله تعالى
بعبادته وحده،
على الوجوب،
لا خِيَرَةَ فيه
بالفعل والتَّرك

العبادة اسم
جامع، لكلِّ
محبوب لله
من الأقوال
والأعمال

الضَّميرُ في مقام
التَّعريف لعدم
صحَّة وقوع
العبادة لغير
الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/277.

تخصيصه تعالى
بالعبادة من
قوانين الكون
الإلهية الزاسية

التزغيب في لزوم
دين الإسلام
القيّم، والنأي
عن الأباطيل
والأوهام

ما عدا الإسلام
مما يتدين
الناس به لا
استقامة فيه

الإسلام دين
قيّم، مبدؤه
الحق، وغايته
النفع

على اختصاص الله تعالى بالعبادة، وهو اسم إشارة للبعيد، ونكتة التعبير به: الإيمان إلى فضله وعلو مقامه ورفيع منزلته⁽¹⁾؛ إذ إن أفراد الله ﷻ بالعبادة أعظم حقيقة بعث الله تعالى بها رسله وأنبياءه.

سِرُّ وَصْفِ الدِّينِ بِالْقِيَمِ:

وُصِفَ الدِّينُ بِالْقِيَمِ فِي قَوْلِهِ اللَّهُ ﷻ: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، لإرادة المدح والثناء، فهو الدين الذي لا عوج فيه، ولا يتطرق إليه شيء من الخل، وهو الدين الظاهر أمره، البيّنة أدلته⁽²⁾، وفي هذا الوصف أيضاً: ترغيب في لزومه بعد تشنيع العدو عنه إلى المعبودات الباطلة.

بَلَدْعَةُ أَسْلُوبِ الْقَصْرِ فِي: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾:

فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أَسْلُوبُ قَصْرٍ، وَطَرِيقُهُ: تَعْرِيفُ جَزَائِ جَمَلَةِ الْإِسْنَادِ، فَالْمُسْنَدُ إِلَيْهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ اسْمٌ إِشَارَةٌ، وَهُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ، وَالْمُسْنَدُ: ﴿الدِّينُ﴾ مَعْرَفٌ بِاللَّامِ، وَالْمَقْصُورُ فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْقَصْرِ هُوَ الْمَعْرَفُ بِاللَّامِ تَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوْ تَأَخَّرَ، فَبِإِذْنِهِ ﷻ: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ قَصْرُ الدِّينِ الْقَيِّمِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ؛ لِأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينُ النُّفْلِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ، فَأَفَادَ هَذَا أَنَّ مَا عَدَاهُ مِمَّا يَتَدَيَّنُ النَّاسُ بِهِ لَا اسْتِقَامَةَ فِيهِ⁽³⁾، بَلْ هُوَ فِي غَايَةِ الانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ وَالْبُطْلَانِ.

دَلَالَةُ وَصْفِ الدِّينِ بِالْقِيَمِ دُونَ غَيْرِهِ:

أَثَرُ التَّعْبِيرِ الْقِرَائِيِّ وَصْفِ ﴿الدِّينِ﴾ بِـ ﴿الْقَيِّمِ﴾ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَلْفَافِ الْمُقَارِبَةِ؛ لِأَنَّ مَادَّةَ (قَوْمَ)، تَدُلُّ عَلَى الْقِيَامِ بِالشَّيْءِ، وَعَلَى ذَلِكَ كَانَ الْوَصْفُ لِلدِّينِ بِالْقِيَمِ مَنَاسِبًا؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ وَظِيفَةَ هَذَا الدِّينِ وَثَبُوتَ أَحْكَامِهِ؛ فَهُوَ مُقَوِّمٌ لَأُمُورِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ فِي حَيَاةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/90.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/90.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/277.

النَّاسِ، ولأنَّها تحمل صفة هذا الدِّين؛ لأنَّه الدِّين الَّذي لا اعوجاج فيه، فهو الدِّين المستقيم الَّذي يحمل الخير لكلِّ البشريَّة، بخلاف غيره من الأديان، فلا تودِّي هذه الوظيفة؛ لذلك كان الوصف بالقيِّم، هو الأوفق في هذا المقام.

بلادة أسلوب التَّذليل في السِّياق:

قولُ الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ وارِدٌ على جِهَةِ التَّذليل لما قبله، وهو تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرى المثل؛ لافتقاره إلى ما قبله في الكشفِ عنِّ تمامِ معناه، وهو خلاصةٌ لما تقدَّم من الاستدلال، والمراد: ذلك الدِّين القَيِّم لا غيره ممَّا أنتم عليه وغيركم، والجملة بمنزلة ردِّ العجزِ على الصَّدْر لقولِ الله تعالى حكايةً عن يوسف ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 37 - 38] (1).

معنى الخذف ﴿وَلَكِنَّ﴾:

﴿وَلَكِنَّ﴾ من قولِ الله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حرفٌ استدراك، وقد جيءَ بجملةِ الاستدراكِ للتَّصريح بأنَّ حالَ المخاطبين في عدولهم عنِّ الدِّين القَيِّم وسلوكه ديناً باطلاً، حالُ الجاهلِ الَّذي لا يَعْلَمُ شيئاً؛ وذلك لأنَّ الله سبحانه أرسلَ الرُّسُلَ بالبراهينِ القاطعةِ على استحقاقهِ الألوهيةَ وحدهُ دونَ ما سواه، فَمَنْ عَدَلَ عن هذا الدِّين الَّذي جاءت بهِ الرُّسُلُ كان في غايةِ الجهلِ وفقدانِ العِلْمِ.

دلالة التعبير بقوله: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾:

جاء التعبير القرآنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

تَلْخِصُ
الاستدلال على
إثبات الدين
الحق، وإبطال
ما عداه

العدول عن
توحيد الله
سبحانه،
غاية الجهل
والانحراف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/277.

تحسين
الجواب،
وتلطيف
الخطاب،
مسلك دعوي
جذاب

يَعْلَمُونَ»، مع أَنَّ يوسف ﷺ خاطبهم في الآية السابقة، بقوله: **﴿يَصْصَحِي السَّجْنِ﴾**، فكان من الممكن أن يقول بناءً على هذا: (ولكنَّ أكثركم لا يعلمون)، ويكون الخطاب مُوجَّهًا إلى السَّجِينَيْن ومن معهما، لكنَّه عدل عن ذلك، من باب تحسين الجواب، وتلطيف الخطاب، في أمر الدَّعوة بالموعظة الحسنة، كما قال ربُّنا سبحانه: **﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾** [التَّحِل: 125]، وفيه إشارة إلى تبكيت الفتيَيْن وَمَنْ معهما بعدم العلم بحقيقة الوحدةانيَّة، وفيه تعليم للدَّعاة أن يُعَمِّمُوا الأمر عند المعاتبة والنَّصيحة حتَّى يُقْبِلَ النَّاسُ على قبول دعوتهم، وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ما بال أقوام»⁽¹⁾.

نُكْتَةُ التَّغْيِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ **﴿يَعْلَمُونَ﴾**:

عُبِّرَ بِالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ **﴿يَعْلَمُونَ﴾** مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** لإفادَةِ التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ، والمُرَادُ اسْتِمْرَارُ النَّفْسِ لَا نَفْيِ الْاسْتِمْرَارِ، والمعنى: ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى جَهْلِهِمْ وَعَدَمِ عِلْمِهِمْ، فَلَا يَفْقَهُونَ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ مَعَ ظُهُورِهَا. ويجوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ نُزِّلَ عَدَمُ عَمَلِهِمْ بِمَقْتَضَى الْبَرَاهِينَ الْإِلَهِيَّةِ مَنْزِلَةً عَدَمِ عِلْمِهِمْ بِهَا؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يُرَادُ لِأَجْلِ الْعَمَلِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بـ: **﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾**؛ أَي: لَا يَعْلَمُونَ عِلْمًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ.

سِرُّ حَذْفِ مَفْعُولِ الْعِلْمِ:

فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** إِيْجَازٌ بِالْحَذْفِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفِعْلَ **﴿يَعْلَمُونَ﴾** فَعْلٌ مُتَعَدٍّ، وَقَدْ حُذِفَ مَفْعُولُهُ، وَالتَّقْدِيرُ: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الدِّينُ

إفادة العموم
من المقاصد
للوثرة في المعنى
المسوق هنا

(1) في قوله: «ما بال أقوام يَشْتَرِطُونَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ» أخرجه البخاري، الحديث رقم: (456)، ومسلم، الحديث رقم: (1504)، وقوله: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لَيْتِي أَضَلِّي وَأَنَا، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» أخرجه البخاري، الحديث رقم: (5063)، ومسلم، الحديث رقم: (1401).

الْقِيَمُ؛ لِحَاجَتِهِمْ بِتِلْكَ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَذْفُ
المفعول لإِرَادَةِ التَّعْمِيمِ، فَاِلْمَعْنَى: لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا، فَيَعْبُدُونَ أَسْمَاءَ
سَمَّوْهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، مُعْرِضِينَ بِذَلِكَ عَنِ الْبَرَاهِينِ النَّقْلِيَّةِ،
وَالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ⁽¹⁾.

وَجَائِزٌ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ هَهُنَا مَنْزِلًا مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ
لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ أَصْلًا؛ لَكُونِهِمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِعُقُولِهِمْ، فَكَانُوا فِي حُكْمِ
الْبَهَائِمِ الْعَجَمَاوَاتِ⁽²⁾.

دلالة التعبير بنفي العلم:

آثر القرآن الكريم التعبير بنفي العلم دون وصفهم بالجهل، كأن
يُقَال: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَجْهَلُونَ)؛ لَفَتْحِ الْبَابِ أَمَامَ عَقُولِهِمْ لِلْبَحْثِ
عَنْ خِصَائِصِ هَذَا الدِّينِ الْقِيَمِ، وَلَوْ وَصَفَهُم بِالْجَهْلِ لَكَانَ ذَلِكَ
مَانِعًا لَهُمْ، وَصَادًّا عَنِ النَّظَرِ فِي أدَلَّةِ الدِّينِ الْقِيَمِ وَبَرَاهِينِهِ.
وفيه إشارةٌ تعليميَّةٌ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، فَعَلَى الدَّاعِيَةِ
أَلَّا يَصَدَّ النَّاسُ عَنْ دَعْوَتِهِ، بَلْ يَفْتَحْ لَهُمِ الْبَابَ بِاخْتِيَارِ الْعِبَارَاتِ
اللطيفة، والكلمات الباعثة على القبول.

الكلمة اللطيفة،
مفتاح للعقول،
وأنس للقلوب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/90.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/279.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.

مج. 22، 812 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 7-19-978-9948-768

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 7-19-978-9948-768

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»